رسالة في اعتقاد الحكماء

بسم الله الرّحمن الرّحيم

هذه رسالة معروفة بـ «اعتقاد الحكماء» انشأها الإمام العالم شهاب الحقّ والدين السهرورديّ المقتول، قدّس الله نفسه.

(١) أمّا بعد حمد الله تعالى والصّلوة على نبيّه محمّد وآله، فسببُ تحرير هذا الكتاب هو أنّي لما رأيتُ أنّه تطرّق ألسنة الناس إلى أهل العلم من الحكماء المتألّهة واشتدّ التنكير في حقّهم. ومَنشأ ذلك بسبب ظنّ الناس في حقّهم بأنّهم «هم الدهريّة الذين لا يقولون بالصانع، والراحة بعد الموت، نعوذ بالله من هذا الكلام فعليهم لعائن الله وعلى محبّيهم»!

(٢) والظنّ يخطئ ويصيب. وهذا الظنّ خطأ في حقّ أهل العلم من الحكماء المتألّهة، بل أهل العلم من أرباب الحقيقة يعتقدون بأنّ للعالم صانعاً، وهو واحد فرد صمد لم يتّخذ ﴿صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾(١) وإنّه حيّ عالم سميع بصيرٌ بصفات الكمال من غير تكثّر وتعدّد؛ وإنّ الأنبياء مأمورون من جهة الله تعالى ما وجب عليهم أداءه؛ وإنّ العذاب والراحة حقّ؛ والسعادة والشقاوة حقّ ثابت لاحق للإنسان؛ والسعيد يجد الراحة بعد الموت، والشقي يجد العذاب بعد الموت؛ وإنّ العالم ممكن الوجود، وكلّ ممكن الوجود يكون محدثاً باعتبار أنّه يتوقّف وجوده على

(١) سورة الجن، الآية: ٣.

غيره ولا يكون موجوداً بذاته، فإذن القديم لا يكون إلاّ ما لا يحتاج في وجوده إلى غيره وهو واجب الوجود عزّ وعلا! هذا ذكر اعتقادهم على وجه الإجمال.

(٣) أمّا على وجه التفصيل فهو أنّهم يبرهنون على أنّ العالم ممكن الوجود. والقريب من الفهم هو أنّ الأعراض قائمة بالأجسام، فيكون «العرض» ممكناً لتوقّفه على غيره؛ ولو كان واجباً وجوده، لَما توقّف وجوده على غيره. وأمّا الأجسام فهي محلّ الأعراض الممكنة. وواجب الوجود لا يكون محلّ الأعراض والأشكال والألوان والحرارة والبرودة وسائر الأعراض المختلفة. فإذا لا بدّ من صانعٍ مبدعٍ، ولا يكون مُبدِع الهيئات الجسم، لأنّ الهيئات مختلفة والجسم من حيث الجسميّة لا يختلف، فلا يكون مبدعاً لحقائق مختلفة.

والأعراض لا تكون مُبدِعات للأجسام لوجهَين: أحدهما هو أنّ الأعراض مختلفة والجسم حقيقة واحدة؛ فلو كانت الأعراض مبدعات الأجسام، لكانت الأجسام مختلفة في الجسميّة. والوجه الثاني هو أنّ الأعراض مفتقرة في الوجود إلى الأجسام، فكيف يكون «العرض» مبدعاً لما افتقر إليه في الوجود؟

والجسم لا يكون مبدعاً لذاته ولا العرض مبدعاً لذاته، فلا بدّ من مبدعٍ لا يكون جسماً ولا عرضاً. فإن كان ذلك المبدع واجب الوجود بذاته، فهو المراد؛ وإن كان أيضاً ممكناً، فلا بدّ وأن ينتهي إلى واجب الوجود بذاته، وهو البارئ تعالى. والعاقل لا يشكّ في ذلك ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾[1]؟ بل ذلك أمر فطريّ، كما قال الأعرابيّ: «البعرة تدلّ على البعير ونقل الأقدام يدل على المسير»! فهيكل علويّ بهذه اللطافة ومركز سفليّ بهذه الكثافة أما يدلاّنِ على الصانع الخبير؟ غير أنّهم يقولون بأنّ البارئ لا يبدع الأجسام مطلقاً، بل إمّا أن يتكوّن «الجسم» ناراً أو هواء أو ماء أو تراباً. وإذ كان كذلك، فلا يمكن ابداعه إلاّ بجهات مختلفة.

(٤) وإذا كان الأمر على ما ذكرنا، فأوّل ما أبدع الله تعالى «أبدعه» أمراً عقلياً

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ١٠.

حيّاً عالماً، كما قال النبيّ عليه السلام «**أوّل ما خلق الله تعالى العقل**». غير أنّ له جهات ثلاثاً من نظره إلى البارئ وتعلقه، ومن نظره إلى إمكانه وتعقّله، ومن نظره إلى ذاته وتعقّله. فباعتبار نظره إلى بارئه وتعقّله ـ وهي جهة أشرف ـ يوجَد منه عقل آخر؛ وباعتبار نظره إلى إمكانه وتعقّله ـ وهي جهة أخسّ ـ منه يوجَد فلك؛ وباعتبار تعقّل ذاته نفسُ الفلك. وكذلك من الثاني عقل ثالث وفلك ثان ونفسُ الفلك؛ ومن الثالث عقل رابع وفلك ثالث ونفسُ الفلك، ومن الرابع عقل خامس وفلك رابع ونفس الفلك؛ ومن الخامس عقل سادس وفلك خامس ونفس الفلك؛ ومن السادس عقل سابع وفلك سادس ونفس الفلك؛ ومن السابع عقل ثامن وفلك سابع ونفس الفلك؛ ومن الثامن عقل تاسع وفلك ثامن ونفس الفلك، ومن التاسع عقل عاشر وفلك تاسع ونفس الفلك؛ ومن العاشر عالم العنصريّات ونفوس الإنسان، وهو الذي يسمّونه «**واهب الصور**» ويسمّيه الأنبياء بـ «**روح القدس**» و«**جبرئيل**»، وهو الذي قال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾[1].

(٥) غير أنّهم يقولون: لا يكونَ تأخّر هذه الموجودات عن المبدع الحقّ بالزمان والمكان، إذ الزمان والمكان تابع لهذه الموجودات، بل يكون تأخّر هذه الموجودات عن الله تعالى بالذات، وهو تأخّر المبدَع عن المبدِع، إذ المبدَع أبداً يتأخّر عن المبدِع، والمبدِع يتقدّم عليه. فإن كان يحترز أحد عن إطلاق العلّة والمعلول، فلا مُشاحّة في الألفاظ. وإن أطلق مطلق بأنّ العالم دائم، بمعنى أنّه ليس بينه وبين مُبدِعه تأخّر زمانيّ ولا مكانيّ ولا رتبي ولا طبيعي، فأيضاً لا مُشاحّة في الألفاظ إذا كان المقصد واحداً. نعم، لو قال «العالم دائم بمعنى أنّه ليس له مبدِع وصانع» فذلك كفر وزندقة.

(٦) وأيضاً يعتقدون بأنّ الله تعالى لا يبدع شيئاً بناءً على إرادته ـ إذ الإرادة لا تكون إلاّ عند ترجيح أحد الجانَبين على الآخر ـ أمّا بناءً على نفعٍ عائد إلى ذاته أو لنفعٍ

---

(١) سورة مريم، الآية: ١٩.

راجعٍ إلى مفعوله؛ لكن عنده حصول هذا النفع لمفعوله أولى من تركه، حتّى يتحقّق له الإرادة. وهذا أمر فطريّ: يعلم كلّ واحدٍ عن نفسه أنّه لا يريد أن يفعل فعلاً إلاّ بناءً على نفعٍ راجعٍ إليه أو إلى غيره، ويكون حصول هذا النفع للغير عنده أولى من عدم حصوله. والله تعالى منزّه عن الأغراض وعن تعلّق غرضه بشيء؛ فإذن لا يكون فعله بناءً على غرضٍ، بل ذاته يقتضي الوجود، ـ على أنّهم لو نزلوا على سبيل المجادلة ويقولون بالإرادة، لا ينجزم به قاعدتهم؛ فإنّ إرادته أيضاً تكون قديمةً، ويلزم أن لا يتأخّر العالم عنه تأخّراً زمانيّاً ولا مكانيّاً ولا غير ذلك من التأخّرات.

(٧) ويعتقدون أنّ الإنسان أشرف الحيوانات الأرضيّة، وله نفس ناطقة، والنفس الناطقة عند الحكيم عبارة عن جوهرٍ عقليٍ وحدانيٍّ ليس في عالم العنصريّ ولا في عالم الأثيريّ وهو عالم السماوات؛ بل لا يتصوّر وجوده في عالم الأجسام، لأنّه لو كان في عالم الأجسام لم يتصوّر أن يدرك وحدة الحقّ الأوّل جلّ كبرياءه، فإنّ الواحد لا يدركه إلاّ أمر وحدانيّ، بل هو أمر وحدانيّ، كما قال الحلاّج في وقت صلبه «حسبُ الواحد إفرادُ الواحد له». وكلّ ما في عالم الأجسام ليس بواحدٍ، فلا يتصوّر وجود النفس في عالم الأجسام.

والدليل على أنّه ليس في عالم الأجسام وليس بجسمٍ ولا جسمانيّ من الكتاب والسنّة والأثر. أمّا الآيات: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾[1] وهذا يدلّ على أنّه ليس بجسمٍ ولا جسمانيٍّ، إذ لا يتصوّر في حقّ الأجسام هذه الصفات، بل هذه الصفات للروح الإلّهي المتبرّئ عن عالم الأجسام بجوهره. وليس فرق بينه وبين الملائكة إلاّ تصرّفه في الأجسام. وأمّا بيانه من السنّة: قول النبيّ ﷺ «**أبِيتُ عند ربّي يُطعِمُني ويسقيني**». وأمّا الأثر: ما قال بعض المشايخ في صفة الصوفيّة، فقال «**من كان مع الله كان بلا مكان**». وهذا يدلّ على أنّه ليس بجسمٍ، إذ الجسم متركّب ومنقسم، وليس في هذا العالم ما لا ينقسم لا في الوهم ولا في العين.

---

(١) سورة القمر، الآية: ٥٥.

فروح الإنسان ـ وهو الروح الإلّهيّ ـ ليس في هذا العالم. نعم! له تعلّق بالبدن كتعلّق المَلِك بالمُلك، ويتصرّف فيه كما يشاء. وما دام تعلّقه ثابتاً، يبقى الإنسان حيّاً؛ وإذا انقطع علاقته، ينقطع حيوته. وفي بدن الإنسان جسم لطيف بخاريّ يسمّى روحاً حيوانيّاً بسبب بقائه يبقى العلاقة، وإلاّ فيموت. ولولا يكون الأمر على هذا الوجه، فكيف يتصوّر أنّ الروح الإلّهيّ ـ وهو النفس الناطقة ـ يخرق السماوات ويصعد إلى فوق؟ فإنّ خرق الأفلاك غير متصوّر، لأنّ الأفلاك أبداً في الدوران، ولا يتصوّر عليه الحركة المستقيمة؛ فإنّ الحركة المستقيمة لا تكون مقتضى طبعه، فإن كان يلتأم بعد الخرق، فيلزم أن يتحرّك مستقيماً.

(٨) والحركات تحصّل الاستعدادات، وواهب الصور يعطي الوجود كما أنّ الماء إذا صار حارّاً شديد الحرارة استعدّ هيولاه لقبول الهوائيّة، فيعطي الواهب هوائيّةً، وإذا تمّ مزاج الإنسان يعطي له نفساً ناطقةً. فعند الحكيم العقول والأفلاك دائمة لدوام علّتها. وكلّ ما يتجدّد في عالم الكون والفساد حادث لحدوث علّته.

(٩) والهيولى عبارة عن جوهرٍ يلبس تارةً الصورة الناريّة وتارةً الصورة الهوائيّة وتارةً الصورة المائيّة وتارةً الصورة الترابيّة. فظاهر صيرورة الماء هواءً، فإنّ الإنسان يرى القطرات من الندى مرّةً بعد أُخرى، فذلك هواء صار ماء وماء صار هواء. والعناصر الأربعة نار وهواء وماء وتراب. فالنار في غاية البعد من المركز، والتراب في غاية البعد من المحيط.

(١٠) ومن امتزاج هذه العناصر يحصل المواليد الثلاثة من المعادن والنبات والحيوان. والحيوان أشرف من النبات وأتمّ مزاجاً. والنبات أتمّ من المعادن، فالنبات اشترك مع الحيوان في قوى، وزاد الحيوان على النبات بأُمور أُخرى. أمّا اشتراك النبات مع الحيوان «فهو» كان في القوى الغاذية والناميّة والمولّدة، وما يحتاج في الغذاء من القوّة الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة. وما زاد الحيوان به على النبات فهي القوى المدركة، وهي خمسة باطنة وخمسة ظاهرة. أمّا الخمسة الظاهرة، فهي السمع والبصر والشمّ والذوق واللمس. وأمّا الخمسة الباطنة، فهي الحسّ المشترك والخيال والمتخيّلة والوهم والحافظة.

(١١) والإنسان أشرف الحيوانات اختصّ بأمرٍ مفارقٍ وهي النفس الناطقة، قائمة بنفسها، لا في أين، حيّة، عالمة، مدبّرة للأبدان، كما أشار إليه التنزيل ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤﴾ وهي العقول ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥﴾[١] وهي النفوس. وعند الحكماء كما أنّ لأبداننا نفساً ناطقةً، فللأفلاك أيضاً نفوس ناطقة حيّة عالمة عاشقة لمبدعها مشتاقة أبداً في الوجد الدائم واللّذّة المتواترة. ويتعدّى لذّتها إلى أبدانها، فيتحرّك أبدانها كصاحب الوجد من أصحاب التجريد. ولكلِّ نفسٍ فلك، فلهذا اختلف حركاتهم. وبسبب حركاتهم يوجد الخير الدائم في هذا العالم. وليس لهذا العالم نسبة معتبرة إلى عالم الأثير.

(١٢) والعوالم عند الحكماء ثلاثة: عالم العقول وهو عالم الجبروت، وعالم النفوس وهو عالم الملكوت، وعالم الملك وهو عالم الأجرام.

(١٣) ويعتقدون أنّ نفس الآدميّ تبقى أن كانت عارفةً بالله وبملائكته منقّشةً بالحقائق ولها درجة انتقاش الحقائق، فإنّه غاية كمال النفس تجد من اللّذّات ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وإن كان جاهلاً بالله وبملائكته، فيكون بعد المفارقة أعمى كما قال ـ عزّ من قائل ـ ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ۝٧٢﴾[٢]. والأعمى يكون في الظلم ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾[٣]. فيتألمون بعذاب الحجاب عن الله، وبما فات من راحة الدنيا، وباكتسابهم الهيئات الرديّة ـ كما قال تعالى ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[٤] إشارة إلى البعد عن الله ـ وبالحيلولة بينهم وبين ما يشتهون من لذّات الدنيا، كما قال ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ﴾[٥].

(١٤) ويعتقدون أنّ الأنبياء عليهم السلام مبعوثون بالحق لمصلحة نظام العالم، وليذكّرهم الآخرة، فإنّ الناس غافلون عن الآخرة غير منصفين في أحوال الدنيا،

(١) سورة النازعات، الآيتان: ٤ ـ ٥.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٢.
(٣) سورة النور، الآية: ٤٠.
(٤) سورة المطففين، الآية: ١٤.
(٥) سورة سبأ، الآية: ٥٤.

فلا بدّ ممّن يقنّن لهم قانوناً مضبوطاً. ولا بدّ وأن يكون هذا الشخص شريف النفس عالماً قادراً على ما لا يقدر غيره في زمانه بشرف نفسه؛ فإنّ النفس إذا كانت شريفةً وقويت قوّتها. تؤثّر في هذا العالم تأثيراً عظيماً لأنّها تتّصل بروح القدس، وتأخذ منه العلوم، فتكتسب منها قوّةً نورانيّةً وخاصّيّة التأثير، كالحديد الحامية إذا جاور النار تكتسب منه هيئةً نوارنيّةً وخاصّيّة الاحراق. وقد يحصل هذه الدرجة للأولياء والأنبياء مخصوصون بمزيد درجة، وهو أنّهم مأمورون باصلاح الخلق وأداء الرسالة دون الأولياء.

(١٥) واعلم أنّ أرباب الرياضة إذا حصل لهم العلوم، وفكروا في معلوماتهم من مسبّب الأسباب وما دونه من مبدعاته فكراً لطيفاً، ويضعف قواهم بتقليل الغذاء، فيوافق فكرهم بالقلب وذكرُهم باللسان. وتارةً يستعينون بنغمةٍ رخيمةٍ وبروائح طيّبة وبرؤية أُمورٍ متناسبةٍ. فيحصل لهم أنوار روحانيّة حتّى يصير ذلك ملكةً ويصير سكينةً. فيظهر لهم أُمور غيبيّة ويتصل بها النفس اتّصالاً روحانيّاً. ويسري ذلك على المتخيّلة على ما يليق بحال المتخيّلة، ويرى الحسّ المشترك. فيرون الأشباح الروحانيّة على أحسن ما يتصوّر من الصور، ويسمعون من الكلام العذب، ويستفيدون منه العلوم؛ وقد يرون أشياء مكتومة. فلهم الحظّ الأوفر والمقام الأعلى في الدنيا والآخرة. فطوبى لمن أدرك نفسه قبل الموت وحصل لنفسه في الدنيا درجة يلتذّ بها في دار الفناء وفرح بها في دار البقاء.

وأسأل الله التوفيق فإنّه قدير وبالإجابة جدير والمبدع للكلّ. والحمد لله والصلوة على نبيّنا وسيّدنا محمّد وآله أجميعين.

تمت عقائد الحكماء من إملاء إمام أهل الحكمة
الشيخ الإلّهي الرباني السهرورديّ
قدّس الله روحه العزيز

* * *